بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للأستاذ الكبير: عبد الكريم الخطيب

﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد، وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين﴾

والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخاتم النبيين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين إلى يوم الدين.

وبعد، فإنى لا أذكر أنى قدّمت لكتاب غير كتبى، حيث تكون المقدمة مدخلا إلى موضوع الكتاب، وتمهيدًا له..

وكان اعتذارى لمن يدعونى إلى تقديم كتاب من الإخوان والأصدقاء، هو أنى لا أريد أن أسبق القارئ فى الحكم على الكتاب، وألّا ألقاه برأيى فيه قبل أن يتصل بالكتاب، ويصدر هو

حكمه عليه، غير متأثر برأى غيره، فذلك مما يشدّ انتباه القارئ للكتاب، ويخلى المكان لها من غير رقيب!!..

فالذى يلتقى بكتاب بعد أن سمع آراء بعض الناس فيه، مدحًا أو ذمًّا، استحسانًا أو استهجانًا، يصعب عليه كثيرًا أن يتخلص من آثار تلك الآراء التى تتخايل له، وتميل به إلى متابعة هذا الرأى أو ذاك منها.. إن البضاعة الجيدة يتزاحم عليها الناس، من غير إعلان عنها، أو دعوة إليها. وإن البضاعة الرديئة لا تشفع لها عند الناس الهتاف لها، والصراخ من حولها.

* * *

من أجل هذا كدت أعتذر لأخى وصديق الدكتور العالم الأديب عبد العزيز جادو، حيث تفضل مشكورًا بدعوتى إلى أن أقدم لكتابه «أضواء على النفس البشرية».

نعم كدت أعتذر عن قبول هذه الدعوة الكريمة، لولا أننى وجدت نفسى مدعوة منى بداعيين، لا يقبل عندهما عذر أعتذر به..

وأول هذين الداعيين، هو مؤلف هذا الكتاب نفسه، وما أحمل له فى نفسي من إكبار وإجلال، مواقفه الجادة المجيدة فى إحياء أمجاد العروبة والإسلام. وذلك بقيامه فى محراب العلم، كاشفًا عن آثار أسلافنا - رضوان الله عليهم - فى فتح مغالق العلوم والفنون،

وقيامهم بدور الأستاذية للعالم كله. الأمر الذى شهد به الغرب لهم، على حين أننا - لآفات عرضت لنا - كدنا لا نلتفت إلى هذا المجد العظيم، مبهورين بما جدّ للغرب من علوم ومعارف، وهى فى كثير منها قائمة على أصول مستمدة من علوم أسلافنا ومعارفهم..

والدكتور عبد العزيز جادو، واحد من هؤلاء الأفذاذ القلائل من علمائنا، الذين يحاولون فى صدق وعزم، أن يصححوا هذا الموقف وأن يلفتونا إلى ماضينا العريق، الثرىّ بالعلم والمعرفة.. وكان من هذا أن أخرج الدكتور جادو موسوعة من الكتب، وأعدادًا لا تحصى من المقالات والأحاديث، تدور كلها حول القضايا المعاصرة التى أثارها العلم الحديث فى الغرب، فدارت بها رءوسنا، وذُهلت لها عقولنا، وإذا بالدكتور جادو يتناول هذه القضايا بمؤلفاته، وأحاديثه، ومقالاته، ويأتى لها من أسلاف علمائنا بمن يناظرون علماء الغرب، ويقيمون الحجة عليهم بأنهم مسبوقون إلى هذا، وأن ما بأيديهم هو بعض مما سبقوهم إليه، ولسان الحال يقول لهم: «هذه بضاعتنا رُدّت إلينا».

وليس هذا من الدكتور جادو بالشىء القليل، فى الحال التى نتهيأ فيها للنهوض من كبوتنا، واسترداد ما سلبت الأيام منا.. الأمر الذى لا يمكن أن يتم لنا إلاّ باستعادة الثقة فى أنفسنا، وأنّا صناع أمجاد، وبناة حضارات، وأساتذة رواد فى مجالات العلوم والفنون..

ولا شك أن هذا الذى كان من الدكتور جادو يقتضى التنويه

به، وسوق الحمد له، والثناء عليه، اعترافًا بفضله، وحفزًا للهمم السائرة على طريقه.

وإذن، فإنه إذا كان لى أن أعتذر عن تقديم هذا الكتاب، فإن الحق يقتضينى أن أنوّه بصاحب الكتاب، وأن أشدّ على يديه، داعيا له أن يمضى فى هذا الجهاد المبرور، لمسح عرق الخزى عن وجوهنا، ونحن نستجدى الغرب، ونقف منه موقف الأيتام من مأدبة اللئام.

وثانى الأمرين الداعيين إلى عدم الاعتذار عن التقديم لهذا الكتاب، هو الكتاب نفسه.. فإنه يعالج قضية من القضايا التى تواجه المادية التى قام لها سلطان فى هذا العصر، طوى تحت جناحه أمما كفرت بما وراء الحسّ، وأنكرت وتنكرت لكل ما يقع تحت سلطان الحواس.. فكفرت بالله، وباليوم الآخر، والحساب والجزاء، والجنة والنار، بحجة أن أيًا من هذه الأمور لا تأتيها الحواس بنبأ عنه.

فهذا الكتاب الذى أعدّه الدكتور جادو ليعرضه على الناس تدور مباحثه حول النفس.

والنفس فى عالم الماديين أمر لا وجود له؛ لأنهم لا يرونها بأعينهم، ولا يلمسونها بأيديهم، ولا يسمعون لها حديثًا بآذانهم، ولا يذوقون لها طعمًا بألسنتهم.. وإذن فهى عدم، أو خرافة تأخذ مكانها فى عقول الحمقى والمدلسين من الناس!!

فإذا تقرر بالعلم، وثبت بالتجربة أن هناك نفسًا تأخذ مكانها فى كل إنسان، إنهدّ بناء الماديين على رءوسهم وقامت عليهم الحجة بأن وراء الحواس حقائق لا تتناولها الحواس، ولا تخضع لحكمها..

فإذا ثبت هذا، وجد الإيمان بالله، وبالرسل، وبالبعث، والحساب والجزاء والجنة والنار. مدخلاً إلى تلك العقول التى أقامت عليها المادة حجابًا كثيفًا. وهنا ينكشف لها وجه الحق، فتبصر الطريق إلى الله الذى أضلها الهوى والشيطان عنه..

إن هذا الكتاب، الذى يطلع به الدكتور جادو على الناس، يعرض النفس حقيقة واقعة، يقيم عليها الشواهد من كتاب الله، ومن مقولات الفلاسفة اليونانيين، ومقولات الفلاسفة الإسلاميين حيث تلتقى تلك القمم الشامخة من العقول الإنسانية، وتلك المدارك العالية من قادة الفكر الإنسانى مع مقررات الدين بشأن النفس، وبأنها جوهر الإنسان الخالد، حيث تتلقّى الخطاب من الله تعالى فى موقف الجزاء: ﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾ (سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠).. ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ (سورة غافر: ١٧).. ﴿ونفس وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسّاها﴾ (سورة الشمس: ٧ - ١٠).

* * *

هذا وقد نشأ عن الدراسات النفسية فى الغرب، والاعتراف بها، وبأنها جوهر الإنسان، أن خفّ ضغط المادية على العقول هناك، وانفسح المجال لما وراء المادة. وكان من هذا ظهور تلك الظاهرة التى أصبحت اليوم مستحوذة على جانب كبير من النشاط العلمى فى أوروبا وأمريكا، وأعنى بهذه الظاهرة ظاهرة المباحث الروحية وما يتبعها من تحضير الأرواح، وتدريس ذلك فى كثير من الجامعات إلى جانب العلوم التجريبية، كالطبيعة، والكيمياء وغيرها من طب، وهندسة..

وأيًّا ما ينتهى إليه البحث فى عالم الروح، فهو كسب للدين، ودعوة إلى الإيمان بالله، وما يتبع هذا الإيمان من إيمان برسل الله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر..

* * *

هذا والإسلام يؤاخى بين العلم والدين، ويرفع من شأن العلم وأهله؛ لأن الدين الذى لا يقوم على علم هو دين هشٌّ، لا تمسك به العقول، ولا تطمئن إليه القلوب، والله تعالى يقول: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (سورة فاطر: ٢٨) ويقول سبحانه: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلاّ العالمون﴾ (سورة العنكبوت: ٤٣). ويقول تبارك اسمه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط﴾ (سورة آل عمران: ١٨)..

وليس العلم الذى يزكيه الإسلام، ويرفع منازل أهله، مقصورًا

على علوم الدين، من تفسير، وحديث، وفقه، ونحوها، وإنما العلم فى الإسلام هو العلم فى أوسع دوائره، مما يحصله العلماء من سفر هذا الوجود، وما أودع فيه الخالق سبحانه من سنن، وما طوى فيه من أسرار.. فكل ما يضيف إلى العقل من معرفة، هو علم يدخل فى حساب الدين، ويزيد المسلم صلة بربّه، ويقينًا بدينه..

* * *

وبعد، فإنى لا أتحدث عن الكتاب، وحسبى أن أقول إنه يعالج قضية النفس، ويقيم الشواهد على وجودها، وحسبى أن أقول إن مؤلف الكتاب، هو الأستاذ العالم المسلم الغيور: عبد العزيز جادو.. وأن هذا الكتاب هو سيف من سيوف الحق، فى يد مجاهد من المجاهدين فى سبيل الله.

فمزيدًا من هذه السيوف - أيها الأخ الصديق - فى وقت نحن فى أمسّ الحاجة فيه إلى سيوف تحمى حمى الإسلام، وتدفع عن أهله عادية أعداء الله، وأعداء دين الله..

وفقك الله، وأعانك، وأمدّك بروح من عنده.

الإسكندرية فى رمضان ١٤٠٥ هـ - يونية ١٩٨٥م

مقدمة

درج الفلاسفة والعلماء الأقدمون من الإغريق والرومان والمسلمين، وفى أوروبا فى القرون الوسطى والحديثة على اعتبار أن النفس الإنسانية والروح الإنسانية موضوع واحد. وأن الحديث فى أحدها هو بالضرورة حديث فى الآخر. ويدل على ذلك أن كلمة «بسيشيه» Psyché اللاتينية تشير إلى النفس والعقل والروح بمدلول واحد. ثم جاءت مدارس التحليل النفسى الحديثة بزعامة العالم النفسانى النمسوى سيجموند فرويد على أساس من أفكار جديدة تمامًا عن التسليم بالنفس أو بالعقل وإنكار الروح بمعنى الشعلة القدسية الخالدة فى الإنسان؛ لأن فرويد وأتباعه لا يسلمون بوجود عنصر قائم بذاته فى الوعى الإنسانى له أية صفة من صفات الدوام بعد تحلل المخ أو حتى أية صفة من صفات الاستقلال عن المخ قبل تحلله..

عن أن هذا الاتجاه وإن كان قد نجح فى الكشف عن بعض أغوار النفس عن طريق أسلوب التحليل النفسى سرعان ما تبين قصوره عن تعليل أخطر ظواهر الحياة وعدم فاعليته فى مواجهة أخطر أمراض النفس.

حقًا لقد نجح فرويد فى اكتشاف العقل الباطن وهو اكتشاف جليل الأثر فى تاريخ علم الإنسان. وحقًا لقد نجح فى اكتشاف العقد أو المركبات النفسية، وهو اكتشاف بدوره جليل الخطر. لكنه فشل فشلاً تامًا فى تعليل العقل الباطن أو فى علاج العقد النفسية.. فمما لا ريب فيه أنه حاول بسبب ارتباطه الوثيق بفلسفة مادية متزمتة عن الوجود، أن يعلل العقل الباطن بتعليلات سطحية ترجع إلى اللحظات الأولى من عملية الولادة هربًا من محاولة التعليل بحياة سابقة للنفس أو الروح، وهو ما تؤمن به بعض الفلسفات العريقة وبعض الاعتقادات الشائعة فى الشرق الأقصى.

ولكن.. هل كان بمقدور عالم عربى يعيش فى القرن العشرين فى زحمة الفلسفة المادية أن يعلن أنه اكتشف للنفس حياة سابقة؟.. ويقال مع ذلك أنه عالم علمى بالمعنى المستقر؟..

ولكن مما لا ريب فيه أن خلفاء فرويد كانوا أكثر منه تحررًا بكثير من الفلسفة المادية وأقرب منه بالتالى إلى حقائق الحياة. ويمكن أن نذكر فى هذا الشأن أمثال وليم جيمس، وماكدوجال فى أمريكا.. وبرجسون فى فرنسا. وهانز بريش فى ألمانيا، وأدلر فى النمسا، ووليم براون وتشارلس بروض فى إنجلترا، وكارل جوستاف يانج فى سويسرا.. فكل هؤلاء فلاسفة وعلماء نفس من أعلى طراز وكلهم سلّموا بوجود العقل الباطن وبوجود العقد النفسية. لكنهم أصبحوا

من ذوى الاتجاهات الروحية الواضحة التى تميز مدارسهم لعلمية تمييزًا كافيا عن مدرسة سيجموند فرويد.

وهؤلاء الأفذاذ هم رواد أعلام فى علم الروح الحديث بمقدار ما هم علماء نفس كبار..

وإنى سأنحو هذا النحو فى موضوع هذا الكتاب.. لأننى أميل إلى التسليم بأن علم النفس المادى قد انتهى إلى الأبد. وبأن هذه المدرسة قد حلّت محلها مدرسة أخرى يمكن أن توصف بأنها مدرسة علم النفس الروحى التى لا تنكر قيمة كشوف فرويد، ولكنها لا ترتبط مطلقًا بفكرة مادية الحياة. ولا تسلم مطلقًا بأن للنفس الإنسانية دورة واحدة تبدأ بالولادة وتنتهى بالوفاة. أو على الأقل إن هذه المدارس - وهى مدارس وضعية بالمعنى الحرفى للكلمة - لا تجد تعارضًا مطلقًا بين كشوف مدارس التحليل النفسى الحديثة والحقائق التى وصل إليها العلماء الباحثون فيما وراء النفس أو فيما وراء الروح، وهى تلك التى يطلق عليها وصف «حقائق العلم الروحى الحديث».

ومن أخطر حقائق علم الروح الحديث التسليم باستقلال العقل عن المخ، وبدوام الحياة للعقل ولو بعد انفصاله عن المخ، والإدراك عن غير طريق الحواس، وأثر العقل فى المادة، والإلهام الواعى وغير الواعى الذى يميز أرفع إنتاج الفلاسفة والعباقرة والشعراء الملهمين الكبار..

ولقد عالجت بعض هذه الموضوعات فى كتابى « الروح والخلود بين العلم والفلسفة » وسأعالج بعض الموضوعات الأخرى فى كتاب آخر إن شاء الله..

أسأل الله أن يوفقنا إلى الصواب.. وإلى ما يحب ويرضى.

المؤلف